سينما

«مطاردة الضوء المبهر»

المنفى بلغة سينمائية مؤثّرة

في جديده المعروض في «مهرجان وهران الدولي للفيلم العربي 2024» يختم السوري ياسر قصاب ثلاثية وثائقية تناول فيها مواضيع عدّة

ندى الأزهري

هذا الرنين نفسه يُقرّب مسافات نائية، ويثير أشجاناً يبدو أنّها لم تنتهِ. اتصالات لا تنقطع، يتابعها ابنٌ مع أبيه. يبدو أنّ طول الغربة لا يُخفّف من تواترها، ولا انشغال الغربة، الذي يتذرّع به المغتربون. مُهاجرٌ كأنّه لا يزال على حاله منذ سنوات. يبدو أنْ لا ملامح تغيّر مبهج. أيمكن القول: «على العكس»؟

المخرج السوري ياسر قصاب يختم ثلاثية وثائقية. دائماً برفقة أبيه، يتقابلان عبر شاشة. يلتزم معه حواراً يُشكّل ركناً أساسياً من يومياته. أهذه حاجة معنوية، أمْ ضرورة فيلمية؟ بدأ معه بعد هجرته إلى السويد، في «على حافة الحياة» (2017)، ثم «لم أرَ شيئاً، رأيتُ كلّ شيء» (2021)، وأخيراً «مطاردة الضوء المبهر» (2023)، الفائز بجائزة أفضل فيلم وثائقي طويل (جائزة الوهر الذهبي) في الدورة الـ12 (4 ـ 10 أكتوبر/تشرين الأول 2024) لـ«مهرجان وهران الدولي للفيلم العربي».

لكنْ، من يطارد هذا الضوء؟ بل أين الضوء، والفيلم لا ضوء فيه ولا إضاءة مبهرة، باستثناءات نادرة؟ كأنّه قرر أنْ يترك لنفسه العنان لتعبّر بقوّة لافتة للانتباه عن شجن متأصّل. رنين الهاتف صوت رئيسي في الفيلم، كفيلمه السابق. لا تغيير إلّا في إبراز عمق مشاعر وبرودة وكآبة محيط بلغة سينمائية مؤثّرة، وأنضج. ودّع ياسر وريما حلب عام 2012، على أمل عودة قريبة، كما يكتب في مقدمة الفيلم. أكان هناك أمل بعودة، حقّاً، أمْ أنّ الوهم بدأ من هنا، ورافقه وهم انطلاق واندماج في الغربة؟ الأب قلق على ابنه. يسأله بانتظام عن أشغاله وأفلامه. يعطيه نصائح: «انتقل إلى العام، واعمل نقلة فنية متميزة. الحالة الشخصية لا تلفت نظر أحد، ولا تلقى اهتمامه، ونادراً ما سيحسّ أحد مثلك بأحاسيسك». صوت الأب مليء بحيوية وحماسة، تُعبّر عن وقعه صُوَر الخارج، كأنّها ردّ عليه. أشجار عارية وثلوج وأمكنة خاوية، لعلّها لسان حال ابن يُعلّق بصوتٍ يوحي بكآبة تلتقي مع المَشاهد. إنْ كانت جميلة وشاعرية، بل غاية في الجمال، إلّا أنّها صامتة ورمادية وحزينة حزن شتاء بارد.

كأنّه يحاول، وهو يفطن إلى أمر، أنْ يعطي لنفسه مُبرّراً ليُحمّل صوته حيوية ما. يسأل عن مشروع قديم لأبيه لدراسة السينما في روسيا، لم يتحقّق في سورية، بلد الوساطات، فتخلّى عنه. الأب هو من يتكلم معظم الوقت. يُصوّر، يطلب من ياسر، البيت والمدينة، فلا يظهر إلّا خرابها. هناك تناقض بين الجهتين. تظهر حيوية حلب وحركتها وضجيجها رغم الدمار، ويتجلّى مللُ سكون السويد ونقائه وترتيبه الشديد. المدينة تنعكس في ساكنها. طوال الفيلم، كان الأب متحمساً ونابضاً بالحياة، عكس ابنه. كأنّ الأب هو من يسكن مدينة آمنة. كأنّه لا يعاني الزحام والدمار والفوضى والانهيار التام لمحيطه، ولا عليه أنْ يحتمل انتشار الفساد واليأس التام من الأوضاع، ويسمع قصص آباء مثله يعانون مغادرة أبنائهم الشباب، حتّى في سنّ الـ16، تهرّباً من التجنيد. كأنّه لم يفقد معظم أصدقائه موتاً أو سفراً، فـ«كلّ واحد في ديرة». كأنّه ليس في «دولة نائمة وغائبة وتنهار»، حيث لا أطباء ولا أصدقاء ولا تصدير منتجات لبلد منقسم.

رغم ذلك، الأب هو من يحكي ويُحمّس ابنه للعمل والنشاط والانتباه وتحضير المشاريع، بل يرسم خطة العمل بتفاصيلها: حدّد الموضوع، ثم قال له أنْ يُبقي دائماً معه ورقة لتسجيل ملاحظاته. الابن لا يردّ. مهموم بمشكلات الغربة. هذا الوقت يمضي، وعدم القدرة على إقناع النفس باستقرار وضياع الزمن أمام محاولات لا تنتج الكثير، ولا تسمح باندماج فعلي. إنّه قدرُ السوريّ اليوم: إضاعة عمره في الانتظار. انتظار الهجرة، ثمّ الأوراق، فشعور باستقرار. هكذا يمضي العمر.

في ذاتيّة الأفلام الثلاثة لياسر قصاب عمومية تُعبّر عن البلد والمنفى والحنين. لكنْ، حين يستعيد ذكريات الطفولة مع الأب، يعيد تشكيل مفهوم الحنين. مفهومٌ لم يعد نفسه، ولا شأناً رومانسياً. تعلّق ريما (زوجة ياسر ومنتجة الفيلم). جيل الأب حسّاس وعاطفي لا يحتمل الغربة، حتّى إنّه لا يريد جمع الشمل مع الابن. جرّب ألمانيا في شبابه. هناك، حيث «لا نُحسّ بلذّة الحياة» كما قال. كأنّه لخّص كلّ شيء: لم يُحبّ الغربة، ولن يُحبّها.

تتبادل الأمكنة ظهورها: حلب أو المنفى، داخل. خارج. الصُّوَر مُعتمة في المكانين، أكانت بياض ثلج ورمادية طبيعة، أم أبنية متربة منهارة. وباستثناء لقطات مقرّبة لريما، يظهر ياسر في الصورة قليلاً، مُديراً ظهره إلى الكاميرا، أو مُظهراً نصفه من قريب، أو كلّه من بعيد، باعتبار ذلك جزءاً من محيطٍ، أشجاره عارية وثلجه قارس. الأب لا يظهر في لقطات مُقرّبة إلّا في صُوَر قديمة من شبابه، مُقابل لقطات بعيدة اليوم. كأنّه بات صورة ضبابية في الخيال، معالمها غير واضحة.

ببساطة واقعية، يبدي «مُطاردة الضوء المبهر»، الفائز بجائزة أفضل أول فيلم وثائقي طويل في الدورة الـ36 (8 ـ 19 نوفمبر/تشرين الثاني 2023) لـ«مهرجان أمستردام للأفلام الوثائقية»، تغيّر الزمن والوقت الذي يمرّ، والمشاعر التي تتحوّل، والتساؤلات عن الانتماء: «لم أكن مرتاحاً في سورية، ولا هنا مرتاح. المكان ليس الحلّ إذاً»، يعترف ياسر وهو في البيت في فترة كورونا، بشيءٍ من استسلام غير موجود لدى الجيل القديم. يُساهم الأب في تأكيد ما يلاحظه المُشاهد: صُوَر كلّها حزن وعتمة وغابة. ينتقد حركة ابنه: «فيها ملل وضياع»، وهذا الصوت الضجران، لا يعرف ما يريد. يسمع كلمة والده فيُصوّر صورة أو اثنتين مُضاءتين. لكنْ، كأنّ الابن في المكان السيئ.

«مطاردة الضوء المبهر»: ختام ثلاثية عن هجرة وبلد (الملف الصحافي)

إبراز عمق مشاعر وبرودة وكآبة محيط بلغة سينمائية مؤثرة

أفلامٌ لـ«نتفليكس»... تكرار الرداءة مُملّ

نديم جرجوره

في هروبٍ متعمَّد، وإن لوقتٍ قليل، من خرابٍ يعتمل بِحدّة في بلدٍ ومحيطه، تُشاهَدُ أفلامٌ تبثُّها «نتفليكس» منذ أسابيع عدّة. مُشاهدة تصنع مللاً، وتجعل الهروب مصيبة، وتطرح السؤال نفسه، المُكرّر غالباً: لماذا تبث المنصّة الأميركية هذه أفلاماً روائية، أميركية وأوروبية، رديئة للغاية، بينما تُنتج/تشارك في إنتاج أعمال وثائقية، أو تشتري حقوق بثّها، تُعتَبر (أفلاماً وسلاسل) مهمّة، بصرياً ومعالجةً وتقديم معلومات، استناداً إلى أشرطة مُصوّرة ومُسجَّلة (ساعات كثيرة)، يُعاد توليفها ببراعةٍ وجماليات؟ مثلٌ أول: «العدالة» (ترجمة المنصّة للعنوان الأصلي Napad، الذي يُترجم إلى العربية بـ«هجوم») للبولندي ميخال غازْدا. تقليدٌ باهت لأفلام أميركية عادية، تروي الحكاية نفسها: سرقة مصرف، وتحقيقات تُجرى، يُستعان من أجلها بمحقّق عجوز، يُفرض عليه تقاعد باكر لسبب مهنيّ. مثلٌ ثانٍ: «قلب الصيّاد» للجنوب أفريقي ماندْلاً ديوب. زعيم محلي في كيب تاون فاسد ومجرم، ومحصّن في ما يُشبه القلعة. أفراد قلائل يجهدون في فضحه، فالسياسة والمال والجريمة متداخلة، وحسّ وطني يواجه هذا كلّه. أيضاً، لا جديد في ذلك، بل إنّ رداءة الاشتغال واضحة، رغم عدم بلوغها قاعاً غير مُحتَمَل. مثلٌ ثالث: «أجر الخوف (The Wages Of Fear)» للفرنسي جوليان لوكْلَرك. إنّه الأسوأ، لأنّ اشتغالاته غير باهرة وغير جاذبة، ولأنّه نسخة حديثة عن أصلٍ عائدٍ إلى عام 1953، للفرنسي أيضاً هنريّ. جورج كلوزو (مع إيف مونتان وشارل فانِل وفيرا كلوزو).

النسخة الحديثة غير مُقنعةٍ بأحداثٍ تروي «بطولة» فردية لأشخاص قلائل، يريدون إنقاذ مخيّم لاجئين من بئر نفط يشتعل في منطقة مضطربة عسكرياً. شقيقان يعملان في بلدانٍ مختلفة، أحدهما خبيرٌ بالمتفجّرات، والثّاني بارع في حماية الشخصيات. بهدف سرقة مال من زعيم محليّ يُقتل فجأة، يُلقى القبض على خبير المتفجّرات، ويمضي أعواماً في جحيمٍ أرضيّ. مهمّة الإنقاذ تُعيد أحدهما إلى الآخر، وتكشف شيئاً من جشع أناسٍ وأفعالهم الجُرمية. هذه نماذج مُنتجة عامَ 2024. تقليد الأميركي غير صالح غالباً، فالأميركي يُتقن إنجازَ أفلام تشويقية، وإن تبقى عادية وغير مسلّية، أحياناً. طغيان الذكور فيها غير حائلٍ دون الحضور النسائي، وبعض الأداور النسائية أساسيّ في تحقيق عدالةٍ ما، رغم مساعدة رجل (العدالة)، وفي مواجهة فساد وإجرام، في مقابل نساءٍ يحمين الفاسد والمجرم، خوفاً من فضيحة، أو رغبة شخصية في ذلك (قلب الصيّاد)، وفي جهدٍ يُبذل لإنقاذ لاجئين، ما يدفع في لحظةٍ إلى الاعتداء بالضرب على عسكري مرتزق (أجرة الخوف).

رغم هذا، هناك أفلامٌ غير رديئة، وإن يكن عددها قليلاً. أفلامٌ تقول شيئاً من جماليات بصرية، في سردها وقائع حقيقية، أو في محاولتها تفكيك بعض ما في ذاتِ قاتلٍ من اضطرابات نفسية.

هنري ـ جورج كلوزو: نسخة حديثة من «أجرة الخوف» تُشوّه رائعته (Getty)

استقالة عروة النيربية من الإدارة الفنية لـIDFA

أمستردام ـ **العربي الجديد**

قبل أسبوع واحد على الدورة الـ37 (14 ـ 24 نوفمبر/تشرين الثاني 2024) لـ«مهرجان أمستردام الدولي للأفلام الوثائقية»، أعلنت إدارته، في بيان صحافي موزّع في السابع من الشهر الجاري، أنّ عروة النيربية سيتنحى عن منصبه مديراً فنياً، الذي يتبوّأه منذ عام 2018. والتنحي سيحصل في الأول من يوليو/تموز 2025، «لضمان التخطيط الجيّد للانتقال المقبل وتسهيله، واستمرار الاستعدادات الباكرة للدورة المقبلة بسلاسة».

منذ توليه المنصب في يناير/كانون الثاني 2018، جدّد النيربية وفريق المهرجان برامج السينما والصناعة، وأطلقا منصّات ومبادرات جديدة، أصبحت ركائز أساسية: مسابقة Envision، وIDFA On Stage، و Producers Connection. كما حقّقا «التكافؤ بين الجنسين في العروض المختلفة». بحسب البيان، فإنّ «تركيز المهرجان على توسيع التمثيل العالمي في القطاع كان جانباً رئيسياً في فترة ولايته، وأصبح الآن جزءاً لا يتجزأ من النشاطات كلّها، ما جعله تجمّعاً فريداً من نوعه». أضاف البيان أنّه، في الأعوام السبعة الماضية، نجح المهرجان في اجتياز جائحة كورونا، و«التكيّف والتطوّر مع الحقائق الاجتماعية والسياسية المتغيرة، والمشهد الوثائقي المتغير باستمرار».

في الإطار نفسه، يُذكر أنّ النيربية، بالتعاون مع مجلس الإدارة، عمل على مشاريع كبيرة، منها «إعادة هيكلة المهرجان كمعهد للثقافة الوثائقية، وافتتاح جناح الأفلام الوثائقية، مساحةً فريدةً مفتوحة طوال العام في قلب أمستردام». يقول النيربية: «اعتبرت هذا الدور دائماً مسعى فنياً، ومسؤولية أكثر أهمية وحساسية من كونها مجرّد وظيفة. أدرك أنّ النهاية الطبيعية لهذا الدور آتية. إنّها لحظة جيّدة لبدء فصل جديد. قراري طريقة أخرى للتعبير عن حبي للمهرجان وفريقه الرائع. التغيير ضروري، بخاصة عندما يكون في الوقت المناسب. ممتنّ لأنّ المهرجان وثق بي للقيام بذلك، والعمل مع فريق رائع كهذا. سأعود قريباً إلى جانب أولئك الذين يرسلون أفكارهم وأفلامهم وطلبات التمويل، وينتظرون بقلق الإجابات».

أقوالهم

«لي» لإلين كوراس (FilmMagic)، جمالياً ونصّياً، والنصّ يحوّل الحوارات إلى مقاطع من العبارات الثابتة، تقليدي وروتيني في إجراءاته، إلى درجة أنْ لا شيء منه يبقى في ذاكرة المُشاهد، باستثناء قصة بطلته، التي يُمكن العثور عليها بشكل أفضل في كتاب أنتوني بينروز «حيوات لي ميلر» (يستفيد منه الفيلم).

محمد صبحي

كان حسن يوسف واضحاً في موقفه المُعلن من هذا كلّه (عن الاعتزال ثم العودة إلى التمثيل): أنا مسؤول فقط عن قراراتي، وشمس البارودي (فيسبوك) لها كامل الحرية في ما تعتقد وتنوي، وهي مستمرة في طريقها الجديدة التي اختارتها، وأنا عائدٌ لأقدّم الفنّ الذي أحترمه ويحترمني.

أشرف غريب

طمع إليزابيث (ديمي مور/WireImage) بالجمال والشباب والنضارة يُحوّلها إلى مسخ، وهي تريد البقاء شابّة، فتُخلّ بشروط استخدام «المادة» (فيلم لكورالي فارجيت). لذا، تبدأ التشوّهات بغزو جسدها ووجهها. عندها، يحتدم الصراع بين الممسوخ والجميل، وبين الهرم واليانع، وبين الماضي والمستقبل.

زياد عبدالله

أفعالهم

The Substance لكورالي فارجيت، تمثيل ديمي مور ودينيس كواید ومارغريت كوالاي (Getty): إليزابيث سباركل نجمة عروض التمارين الرياضية، تُطرد من عملها يوم عيد ميلادها الخمسين لأنّ مديرها يعتبر عمرَها مُتقدّماً بالنسبة إلى مهنتها. لكنّها تتلقّى عرضاً غير متوقّع من مختبر غامض: «مادة» تُحقن بها فتُصبح أفضل نسخة من نفسها، أي أصغر سنّاً وأجمل وأكثر كمالاً.

«ولاد رزق 3: القاضية» لطارق العريان، تمثيل أحمد عز ونسرين أمين (فيسبوك): بعد مرور أعوام عدّة، يعود الماضي فجأة، ما يُجبر أولاد رزق على العودة إلى الجريمة والسرقة للنجاة بأنفسهم. لكنّ العملية ستكون الأكبر والأخطر والأهم في تاريخهم.

«آل شنب» لأيتن أمين، تمثيل سوسن بدر (Getty) وليلى علوي ولبلبة: تعاني ليلى من تحكّم والدتها في حياتها. ذات يوم، يتوفّى أحد أفراد العائلة، فتذهبان معاً إلى الإسكندرية لتقديم واجب العزاء. هناك، تحدث مفارقات كوميدية عدّة مع أفراد هذه العائلة الكبيرة المؤلّفة من أربع نساء وأولادهنّ وأحفادهنّ.